قضية تعريب الطب

د. محمد الجوادى *

بادئ ذى بدء ، لابد أن نتساءل : ماذا كان سيصبح حال الدول الأوربية فى بداية عصر النهضة لو أنها انساقت وراء الدعاوى (القائمة يومها فرضاً) والتى تقول إنه لابد من الإبقاء على تعليم الطب باللغة العربية لأنها اللغة التى تحتوى على ١٠٠% من الكتابات العلمية المسجلة فى الطب يومها ، ولأن الرازى وابن سينا والزهراوى وابن

* أستاذ مساعد بكلية الطب جامعة الزقازيق.

رشد – وهم علماء الطب المبرزين يومها – كانوا قد كتبوا بالعربية وترجمت مؤلفاتهم . . بل إن الأصول اليونانية للطب اليونانى القديم لم تكن موجودة يومها ، وإنما كان الموجود هو ترجمتها للعربية فحسب، وإذن فإن الأولى هو الاكتفاء باللغة العربية فى تعليم الطب.

ترى ما هو المستقبل الذى كان سينتظر الحضارة الغربية فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا . .الخ ، لو فكرت بهذا الأسلوب فى بداية عصر النهضة (الرينسانس) وظلت محتفظة بالتراث الطبى السابق عليها كما وجدته عربياً ؟

أغلب الظن بل إنه من المؤكد أن إسهام هذه الحضارات فى العلوم الطبية لم تكن لتقوم له قائمة ، ولم يكن للتقدم الطبى فيها أن يحقق شيئاً يذكر على الإطلاق .

فى مرات عديدة كان يتاح لى وقت أجلس فيه (على مائدة طعام أو فى استراحة بين جلسات مؤتمر) مع بعض كبار أساتذة الطب العالميين ، وكانوا يسألوننى هل لا تزالون لا تدرسون الطب بالعربية ؟ ألا زلتم تدرسونه بالإنجليزية (فى المستعمرات الإنجليزية السابقة) وبالفرنسية (فى المستعمرات الفرنسية السابقة) ؟ كنت بالطبع أجيب بالإيجاب ولم أكن أسمع إلا صيحات التعجب التى تدل على أن مثل هذا السلوك مؤلم أو يستدعى الألم . .

هل نجد الجرأة لكى نتأول فنقول إن هؤلاء القوم لا يحبون لغاتهم فهم يدعوننا إلى هجرها . . أم هل نتمادى فى التأول فنقول إنهم يدفعوننا إلى طريق التهلكة حتى لا ننافسهم . .

أعتقد أننا جميعاً أصبحنا اليوم (فى مجموعنا وفى عقلنا الجماعى) بمنأى عن مثل هذه العقد المرتبطة بنظرية المؤامرة والتصورات الخاطئة . . وإذن فينبغى لنا أن نفهم أن مثل هؤلاء الأطباء الكبار لا يقولون ذلك إلا من نفس المنطق الذى يستنكرون به إجراء عملية خاطئة أو فى غير موضعها ، أو وصف دواء لا لزوم له.

لماذا . . هذا هو السؤال الذى أجابت عليه منظمة الصحة العالمية حين دعت بكل قوة إلى أن تلتزم الدول جميعاً بتعليم الطب بلغاتها القومية فقد ثبت أن هذا كفيل فى النهاية بتحقيق مستوى أحسن وأرفع من المستوى الذى يتحقق عند التدريس باللغة الأجنبية . . والمقصود بالمستوى : مستوى التعليم الطبى ، وبالتالى مستوى الخدمات الصحية والطبية الكفيلة بتحقيق الصحة للجميع عام ٢٠٠٠ وهو الهدف الذى وضعته الصحة العالمية منذ أكثر من عقد من الزمن أمام عينيها ونمت من خلاله كثير من المفاهيم المرتبطة بالتقدم الطبى.

وفيما يبدو فإنه لم يعد هناك على ظهر البسيطة كما يقولون شعب لا يدرس الطب بلغته القومية سوى الشعب العربى " للأسف الشديد " مع أنه يمتلك لغة من اللغات الرسمية الرئيسية فى الأمم المتحدة، لغة لابد أن نسمعها وأن نجدها فى كل مؤتمر دولى كبير من خلال سماعات الترجمة الفورية فى الأمم المتحدة ومنظماتها . .

ومع هذا لا يزال بعضنا يعتقد أن اللغة العربية عورة من العورات التى لابد له أن يسترها تماماً.

ومن أعجب ما يمكن أن الإسرائيليين يدرسون الطب باللغة العبرية ، وهى لغة ميتة بلا جدال ، وأن اليونان تدرس الطب باليونانية . .الخ ، إلا الشعب العربى صاحب اللغة المنتشرة فى ٢٢ قطراً !

وفى الحقيقة فإنه يبدو أن موقفنا من لغتنا لا يزال واقعاً تحت سيطرة عقد النقص القديمة ويكفى أن نقارن بين موقفين :

موقف بروتوكولات حكماء صهيون التى تجعل أول البنود والمهام إحياء اللغة العبرية . . وموقفنا جميعاً حين يفتح الله علينا بقرشين " أو لا يفتح " فنسارع من باب الوجاهة الاجتماعية (السامة) إلى إلحاق أبنائنا بما نسميه المدارس الأجنبية .

ومن أعجب ما يمكن أن يسارع الرجال الأفاضل إلى (الاعتراف) أو (القول) بضعف مستوى اللغة الإنجليزية عند طلاب الطب وعند خريجيه ومع هذا يصممون فى نفس الوقت على أن تدريس الطب بغير اللغة الإنجليزية سيضعف المستوى . . تماماً كالذى يعترف بأن السيارة تعانى من ضعف الموتور ، فإذا أشير عليه باستبدال الموتور قال : مستحيل ! ! إنها لن تمضى بدونه ! نحن يا سيدى لا ننصح بأن تمشى بدون الموتور ولكننا ننصح باستبدال الموتور . . ننصحك بأن تستخدم موتوراً آخر أقوى وأشد وأنسب !

وليس من شك أن مستوى الطلاب والخريجين فى اللغة العربية عموماً ليس هو المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه إتقان اللغة القومية، ولكن هذا ليس إلا صورة من صور الإصابات المتعددة التى نحن مصابون بها لأننا نهرب من الحقيقة.

ومع هذا يبقى من البديهى أن مستوى أى مصرى فى اللغة العربية خير من مستواه فى اللغة الإنجليزية " مثلاً " حتى لو أرضع الإنجليزية وتكلمها كأهلها . . وأحب أن أذكر القارئ بالنكتة القديمة حين ذهب مصرى إلى بلاد الإنجليز وعاد ليقول إن أعجب ما فى رحلته أنه رأى الأطفال هناك يتكلمون " الإنجليزية " بأحسن ما يتكلمه الكبار عندنا . .

ولنقلب النكتة لنقول إن إنجليزيا حضر إلى مصر فقال إن الأطفال فى مصر يتكلمون العربية بما لا يقل عن مستوى أعظم المستشرقين الإنجليز . . أترانى فى حاجة إلى أن أذكر بالحقيقة الثابتة وهى أن لسان الأم هو لسان الأم ولهذا سمى بلسان الأم .

لست فى حاجة إلى أن أدلل على صحة ما أقول بما أثبته علم اللغة الحديث وليس فى كل ما أسلفت ما هو معجز فى التفكير ولكنها نقاط مضيئة تكفل لنا أن نعيد النظر فى هدوء إلى القضية لنتأملها من جوانبها الأعمق :

يحلو لبعض الأطباء الذين يستنكرون مجرد التفكير فى تعريب الطب أن يسألوا فى ثقة شديدة : هل تريد للطلاب أن يسموا العضلات بالعضلة الصدرية ، وذات الرءوس الأربعة وهم يقولون لك فى ثقة شديدة إن تسميتها بالاسم الأجنبى مثلا أوقع كثيرا.

وفى الحقيقة فإن هؤلاء يمثلون صورة أخرى من ذلك الرجل الذى ظل سعيدا بأنه يعمل فى سينما سفنكس. . كان سعيدا جدا بوقع الاسم على مستمعيه وهو يقول لهم إنه هو المسئول عن تشغيل ماكينة

السينما فى سينما سفنكس ، وذات مرة قال له ابنه الذى أصبح فى السنة الثانية الإعدادية هل تعرف يا بابا معنى سفنكس ؟ ولم يكن الأب فى الواقع يعرف ، فلما قال له الابن إنها تعنى أبوالهول . . صعب ذلك على الأب وساءه بعد هذا العمر الطويل ألا يكون معنى سفنكس إلا أبوالهول ، فقد كان يريدها كلمة تحمل " سحر الغموض ".

ويبدو أن " سحر الغموض " هذا هو الذى يسيطر على بعض أطبائنا حين يريدون للطب المصرى بنية صادقة شيئاً من الوجاهة العلمية . . من كهنوت العلم ، وكهنوت العلم فى حد ذاته شئ لا بأس به!

كنت ذات مرة أعدد لطلاب البكالوريوس العلامات الطرفية فى مرض ارتجاع الصمام الأورطى ، ومن بينها علامة سميت باسم الشاعر الفرنسى دى موسيه ، وقد كانت والدته طبيبة اكتشفت العلامة وسمتها باسم ابنها الشاعر المريض بارتجاع الأورطى ، كان الطلاب سعداء بهذه المعلومة البسيطة . . ولكن أحد الزملاء حاول إقناعى أن أتجنب مثل هذا السلوك التعليمى لأنه سوف يعطى الطلاب الانطباع (الذى ربما كنت أخاف منه) بأنى أغلب الأدب على الطب حتى ونحن على أسرَّة المرضى !

إلى هذا الحد بلغ بنا الاقتناع بجماد الطب حتى كأن الله خلق هذه العلامة المرضية مسماة باسم دى موسيه فلا يصح أن نذكر لماذا سميت هكذا ، وضاع منا فى ظل هذا الشعور المخدر الإحساس بأن العلم تطور على مدى مئات السنين وأن هذه المسميات ليست إلا نتاجاً لتطور العلم ، والملاحظة ، والتجربة ، والاكتشاف.

أكثر من هذا فإن طبيباً مسلماً " اسمه بهجت " اكتشف مرضاً فسماه مرض بهجت ، ولكن هذا المرضى فى المراجع الطبية يكتب بالطبع بطريقة أخرى تبعاً للحروف اللاتينية بحيث إذا قرئ فى العربية أصبح اسمه " بخست " ، وللأسف الشديد فإننا نصمم على أن ندرسه على أنه مرض بخست ، وليس الاسم " بخست " وإنما هو بهجت .

ولكن لابد كما قلنا من إيجاد " أو الحفاظ على " ما يسمى بسحر الغموض . وبالتالى فلو اكتشف طبيب لقبه (محمد) مرضاً وسمى باسمه فسننقله أيضاً إلى طلابنا تحت اسم" مرض " موهامد " لأن هذا هو الطريق الكفيل بتقدم العلم وعدم تخلفنا عن الركب !

ولعلنا قد ووجهنا بهذه الحقيقة المرة أخيراً حين اكتشفنا بعد سنوات أن الاسم الحقيقى لرئيس وزراء ماليزيا هو " محاضر محمد " وليس مهاتير " التى هى النطق الأجنبى للاسم المسلم ، وكنا ننقله عن اللغة المترجمة بدلاً من أن ننقله عن اللغة الأصلية التى هى لغتنا !

أطرف من هذا كله ذلك " التعالم " الذى لم تكتمل أركانه والذى نسمعه من بعض الذين يقولون لنا إن هذه المصطلحات الطبية ليست إنجليزية ولا فرنسية وإنما هى لاتينية .

وفى الحقيقة فإن كثيراً من هذه المصطلحات اللاتينية التى يحكون لنا عنها ليست إلا مصطلحات عربية الأصل وأصابها التطوير الصوتى ، وهى تدخل القاموس اللاتينى، وسأضرب مثلاً بكلمة واحدة ليس فى وسع أحد أن يزعم أنها خلقت هكذا من أيام أبوقراط ، أو أن يشتقها من أى فعل لاتينى (وإن كانت التجربة قد علمتنا أن لا نستبعد وجود من يفعل ذلك).

إنما القصة فى بساطة شديدة أن الأطباء العرب وجدوا نوعاً من العمى لا يمكن إرجاع سببه إلى إصابة فى العين نفسها ، إنما هو يحدث بسبب عصبى غير ظاهر لنا " كما نقول الآن " سبب يكون فى الدماغ (الرأس) ولهذا سمى العلماء العرب هذا النوع من العمى . . "عمى الرأس " فلما نقلت التسمية إلى اللاتينية أخذوها كما هى وحرفت فى لغتهم إل " أمايروسس " ، هل إذا سمينا هذا المرض باسمه العربى وفهمه الطالب فى ثلاث ثوان نكون مخطئين فى حق التقدم العلمى لأننا لم نضيع من الطالب ساعة فى فهم ما لا يكون فهمه إلا بتفسير ملتو شديد التعقيد !

يقول بعض الذين يتخوفون من تعريب الطب إن نتيجة التعريب ستكون فى صورة خريجين لا يعرفون الإنجليزية شأن خريجى الهندسة والتجارة والآداب . . على حين أن خريج الطب هو الوحيد اليوم (فى مصر) الذى يعرف الإنجليزية لأنه درس بها طيلة سبع سنوات . . كلام له بريق يرجع إلى التمشى مع عقيدة تفوق كلية الطب على غيرها من الكليات بلا استثناء . . " وهى بلا شك عقيدة من عقائدنا الفاسدة " التى ما زال مجتمعنا يدفع ثمنها !

يبدو أن المأساة تكمن فى اعتقادنا بمعرفة الخريج الإنجليزية على هذا النحو الذى نعرفه جميعاً ، مع أن الفارق بين هاتيك " الرواسب اللغوية " التى تتكون من جراء دراسة الطب باللغة الإنجليزية وبين اللغة نفسها هو كالفارق بين رواسب البحيرات من ناحية ، وبين المحيطات من ناحية أخرى ، بين الأملاح المتبقية التى فيها تركيز عال من مواد بعينها من ناحية ، وبين التدفق الذى لا حدود

له من ناحية أخرى ، بين السكوت التام من ناحية أخـــرى ، والحركـــة التى لا تهدأ ، بين القطعة من الحياة وبين قطعـــــة مـــن الأثريـــات أو الحفريات التى تدل على الحياة ، واسألوا أى طبيب عن هذه اللغة التـــى يزعمون أنه يعرفها نتيجة دراسته الطب فى الكلية بالإنجليزية وســـوف تكون هناك إجابات مختلفة تبين لنا أسباباً متعددة ، أخذ بها من تعلمـــوا الإنجليزية كلغة من بين الأطباء اللهم إلا السبب الوحيد المزعوم وهـــو أنهم درسوا الطب باللغة الإنجليزية !

لعل هذا يذكرنى بقصة قائد سيارة كان يحب سماع الأغـــانى ، ولم تكن تتاح له فرصة هذا السماع كما ينبغى إلا حين يقـــود ســـيارته على الطرق السريعة . وجاءته ذات يوم من الأيام فرصة شراء ســـيارة أخرى أعظم شأناً من سيارته ، فإذا به يتردد فى آخر لحظة لأن السيارة الجديدة كانت تفتقد جهاز التسجيل ! وعبثاً حاول زملاؤه إقناعه بأن هذا الأمر يمكن تداركه بمائة جنيه فقط يشترى بها جهاز تسجيل جديداً.

وللأسف الشديد فإن الصورة عندنا مشابهة إلى حد كبير ، فنحن لا نحتاج إلى الإبقاء على السيارة القديمة وإنما نحتاج جهاز التسجيل . . نحتاج أن نقرر دراسة اللغة الإنجليزية " واللغة العربيـــة كذلـــك كمـــا سيأتى " فى كليات الطب حتى ولو استمر تعليم الطب باللغة الإنجليزية.

ذلك أن مستوى خريجى الكلية فى اللغة الإنجليزية " التى ســـوف يحتاجونها للرجوع إلى المراجع كما يقول معارضو التعريب " يحتـــاج دفعة لن تتحقق إلا بتقرير دراسة اللغة كلغة فى كلياتنا الجامعية . .

وللأسف الشديد نحن نفعل هذا فى مرحلة متأخرة فى مرحلة الدراسات العليا ، وفى الغالب فيما بعد الماجستير ، وفيما بعد الدكتوراه حين يكون لزاماً علينا التقدم لامتحان التوفل TOEFL إذا ما أردنا أن نطأ بأقدامنا أعتاب الولايات المتحدة ، التى لم تخدع نفسها بتصديق أننا درسنا الطب باللغة الإنجليزية ! بينما نحن نصر على خداع أنفسنا.

ولست أشك فى أن اللغتين العربية والإنجليزية لابد أن تحظيا بنصيب معروف من ساعات الدراسة الجامعية فى كليات الطب ، فلابد أن يدرك الطالب كيف يصوغ لغة عربية سليمة تؤهله للتعامل بسلامة مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ويتعامل مع أفراده .

إن الفارق بين خريج الطب وخريجى الكليات الأخرى أن الطبيب يعتمد كثيراً جداً على تحليل المضمون فى ممارسته لمهنته ، وتحليل المضمون يقتضى فهماً تاماً باللغة حين تقال وحين تكتب ، وإذا كان تعامل الطبيب سيتراوح ما بين المراجع والمجلات المكتوبة بالإنجليزية وبين المرضى الذين يتكلمون العربية ولهجاتها العامية فلابد له أن يحيط إحاطة تامة بإحدى وسائل أدائه لمهنته وهى اللغة.

نعرف أن اللغة لازمة للعالم فى معمله ، ولكنها ألزم كثيراً للأطباء فى عياداتهم، وتدريس اللغة فى كليات الطب ليس بدعة وليس صعباً ، إنما هى مهمة سهلة جداً مع شئ من التنظيم ، وفى الكادر الجامعى درجات لمدرسى اللغة يشغلها عدد كبير جداً من الأساتذة المخضرمين.

وقد انتبه المشرع للتعليم الجامعى إلى مدى الاحتياج إليهم فى التعليم الجامعى منذ مرحلة مبكرة ، ولكن المشكلة أننا كنا نأخذ هذه

الأمور بصورية شديد فنكتفى من دراسة اللغة بساعات محدودة فى سنة واحدة أى بالقدر الذى يشوه الفكرة ليس إلا .

بقيت نقطة هامة تتعلق بالقلق الذى يبديه بعضنا تجاه قصور إمكاناتنا (لأننا تعودنا الكسل) فى المستقبل القريب عن تأليف وطبع ونشر المراجع التى سوف نحتاجها لمواكبة تعريب الطب . ولا أحب أن أعدد للقارئ المراجع المتوفرة ولا أن أحدثه عن خطط ناجحة ، وإمكانات موجودة بالفعل.

ولكنى أؤثر أن أحدثه بمرارة عن أننا كنا ولا زلنا مستهلكين ، وعن أن هناك منتجين يعدون لنا ما نريد طبقاً لتقاليدنا ولقوانيننا دون أن يضيرهم هذا الالتزام بتقاليدنا وقوانيننا ، ولا أريد أن أذكره بأن الصين تنتج لنا سجادات الصلاة وأن اليابان تنتج لنا ساعات الآذان .. ولكنى سأذكر له أن دار نشر أمريكية طبعت فى برنامجها العربى (٥٥) مرجعاً باللغة العربية فى عام واحد لكلية واحدة حين وجدت أن هذه الكليات تدرس المنهج بالعربية ، وليس بالإنجليزية !

فليطمئن الذين يتخوفون من نقص المراجع . . كأن المراجع لا تكتب إلا بأيديهم التى لم تتعود إلا على الكتابة بالإنجليزية . . وهو وهم ما بعده وهم .